

التعريف بالعالم الرباني الشيخ عبد الرحمن بن يّلس التلمساني

[1932 – 1983 م]

- أحد أعلام التصوف الجزائريين المعاصرين -

بقلم أحد تلامذته: نبيل حَقّاف

أستاذ بقسم العلوم الإسلامية

جامعة وهران

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه ثقّتي وأستعين، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا

كثيرًا إلى يوم الدّين

وبعد،

فهذه صفحات تتضمّن قبسات من حياة عالم من العلماء الجزائريين العاملين الربّانيين، وعلم من أعلام التصوّف المعاصرين، الذين وهبوا حياتهم للعلم والدعوة والإرشاد والإصلاح. فتركوا أثرًا حسنًا وخلّدوا بصماتهم في سجلّ التاريخ، وهو الشيخ الفاضل عبد الرحمن بن يّلس التلمساني رحمه الله تعالى.

وهذه المداخلة محاولة في التعريف بهذا الشيخ الصوفي الصالح والعالم الجليل، وإلقاء الضّوء على بعض الجوانب من حياته وشخصيته الفذة والمميّزة، وذلك من باب الوفاء بحق الأسلاف من العلماء والصّالحين، الذين لهم علينا حقّ وفي ذمّتنا دين، والذي يقتضي منّا عدم نسيانهم وإحياء ذكراهم، والتذكير بحسن أثرهم وجميل مآثرهم، حتى ترتبط الأجيال الحاضرة بأمجاد تاريخها وأصالة ماضيها، فتكون خير خلف لخير سلف.

وينبغي التنبيه إلى أنّ ما كُتب في التعريف بهذا الشيخ، هو مستمدّ أولاً ممّا أفادتنني به من معلومات وأخبار، وزوّجه الداعية الصّالحة الفاضلة، سليلة العلم والعلماء، ابنة الشيخ سهيل الخطيب رحمه الله تعالى. ومستمدّ ثانياً من معرفتي الشخصية به، إذ كان أحد المشايخ والعلماء الذين تشرّفت بالتّلمذ على يديهم والأخذ من معين علمهم، حيث كنت شديد الحرص، خلال فترة الشّباب، على حضور دروسه العلمية ومجالسه الرّوحية، التي كان يعقدها في الزّاوية العلوية وفي بيته بمدينة وهران، التي اختارها مقرّاً لإقامته بعد رجوعه من بلاد الشّام مهاجر أجداده.

أولاً: أسرته

ينتمي الشيخ عبد الرحمن بن يّلس إلى أسرة عريقة، متجذّرة في العلم والتصوف، والفضل والصّلاح، فجده الشيخ محمد بن يّلس كان من علماء مدينة تلمسان البارزين وشيخاً من شيوخ التصوّف المشهورين، ووالده الشيخ أحمد بن محمد بن يّلس كان أيضاً من العلماء وشيوخ التصوف المرموقين في بلاد الشّام التي هاجر إليها والده.

1- جده: (1)

جده هو الشيخ العارف بالله محمد بن الحاج علّال بن بلحسن بن الحاج علي بن محمّد بن يّلس شلوش.

وُلد سنة 1271هـ (1854م) بتلمسان وتربى يتيما في كفالة عمّه محمّد بن يّلس فقام تربيته وأغدق عليه بالنعم.

درس القرآن الكريم والعلم الشرعي بمساجد مدينة تلمسان واتصل بعلمائها وفقهائها وعلى رأسهم الشيخ أحمد بن محمد الذكالي (المتوفى في وطنه دكّالة بالمغرب الأقصى سنة 1333هـ الموافق لـ 1915م)، فأخذ عنه العلم النافع من عربية وفقه وتوحيد وتصوف. وكذلك العلّامة الجليل سيّد فقهاء عصره الشيخ محمد بن أحمد الحرشاي المدرّس في الجامع الكبير (المتوفى بتلمسان سنة 1313هـ - 1896م) والفقير الناسك العابد الشيخ محمد بن الشيخ دحمان المدرّس في مسجد سيدي ابراهيم (المتوفى سنة 1313هـ - 1896م بتلمسان دفين العباد)، وغيرهم من علماء تلمسان في ذلك الزّمان.

وقد سلك الشيخ محمد بن يّلس الطّريق الصّوفي على يد شيخه العلّامة الذكالي ودلّه هذا الأخير على شيخه العارف برّبّه الأستاذ الكبير الشيخ محمد العزاوي الحسني المشهور بالهبري صاحب زاوية تاغيت بجبل بني زناسن (1239-1317هـ = 1823-1899م)⁽²⁾. فسافر إليه واجتمع به ولقّنه الذكر الخاص وأذن له بإرشاد الناس إلى ذكر ربهم والإجتماع عليه والقيام بدينه واتباع سنّة حبيبه ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهدى الله على يديه خلقا كثيرا، واشتهر أمره وشاع خبره بين الخاص والعام، وكان له الفضل في نشر الطّريقة الدرقاوية في تلمسان وضواحيها.

ثم بعد وفاة شيخه الهبري، انتقل إلى وهران ومكث بها ثلاث سنوات يعلم ويربّي وينشر

الطّريق، فكان من أشهر تلاميذه بها الشيخ الطّيب المهاجي والشيخ أبو عبد الله البوعبدلي صاحب زاوية بطّيوّة. ثم انتقل إلى المغرب الأقصى وبقي في بلاد الرّيف سنتين ثم عاد إلى تلمسان.

ثم اجتمع بالمربّي الكامل العارف بالله الشيخ سيدي حمّو بن الحبيب البوزيدي المستغانمي الحسني المتوفى سنة 1909م⁽³⁾ (وهو أخو شيخه في الطّريق الصوفي، فهو والشيخ الهبري، شيخهما واحد وهو سيدي محمّد بن قدّور الوكيل المتوفى سنة 1869م⁽⁴⁾). فأذن الشيخ البوزيدي للشيخ محمّد بن يّلس بإرشاد المريدين وتربيتهم وذلك في سنة 1325هـ (1907م)، ففتح الله على يديه قلوبا مقلّلة وعيونا عميا وأذانا صما وحصل لكلّ من صَحِبَه الهداية والتوفيق.

وبعد وفاة الشيخ البوزيدي أراد كبار مريديه وأتباعه تعيينه خليفة على الزاوية بمستغانم فاعتذر بعدم استطاعته ترك زاويته بتلمسان.

وفي سنة 1329هـ (1911م) شهدت الجزائر هجرات جماعية للعديد من الأسر والعائلات إلى المشرق، وذلك بسبب التضييق المتزايد للمستعمر الفرنسي على العلماء وعلى نشاطهم التعليمي، ومحاولته لفرض التجنيد الإجباري على أبناء الجزائريين في الجيش الفرنسي، الأمر الذي رفضه العلماء بشدّة وأفتوا بحرّمته وعدم جوازه⁽⁵⁾، ممّا اضطرّ الشيخ محمد بن يّلس إلى أن يهاجر ويفرّ بدينه إلى مدينة دمشق مهاجر الأمير عبد القادر

من قبله، مصطحبا معه زوجه وابنه الشيخ أحمد الذي كان في سن الجندية، ورافقه بعض أحاباه وتلامذته ومريديه، وعلى رأسهم العلامة الشيخ محمد الهاشمي.⁽⁶⁾

وأثناء إقامته بها، زادت بفضلها شهرة الطريقة الشاذلية وأخذ عنه الطريق كثير من أهل الشام، وظهر على يديه الخير الكثير والنفع العميم، ومُنحت له زاوية بحي الشاغور عُرفت بالزاوية الصمدية.

وبعد سبعة عشر عاما من إقامته في هذه البلدة المباركة، توفي رحمه الله في يوم الإثنين 11 جمادي الثانية سنة 1346 هـ الموافق لـ 30 نوفمبر 1927م، بعد مرض أصابه ابتداء من سنة 1922م واشتدّ عليه في بخر أيامه، وقد صُلّي عليه في الجامع الأموي وشيّعت جنازته آلاف مؤلفة من الناس، وبكته دمشق بأسرها.

2- والده:⁽⁷⁾

والده هو شيخ الطريقة الشاذلية، العالم الربّاني أحمد بن محمد بن يلس شاوش، المولود فيتلسمان سنة 1317 هـ (1899م) ونشأ بها وتعلّم القرآن ومبادئ العلوم فيها.

ولما اشتدّت وطأة الفرنسيين على المشايخ والعلماء في الجزائر، هاجر إلى الشام مع والده الشيخ محمد في سنة 1911م.

وفي دمشق تابع الشيخ أحمد تحصيله العلمي فدرس النحو والصرف والأدب والعقائد وغيرها على الشيخ مصطفى المصري وكان حجة في العربية وعلوم الآلة. ودرس أيضا على جلة علماء الشام كالشيخ سعيد السّكري والشيخ أمين سويد، والشيخ توفيق الأيوبي، والشيخ محمد بن جعفر الكتاني، وحضر دروس المحدث الشيخ بدر الدين الحسني.

ولما مُنحت لوالده الشيخ محمد زاوية الصمدية، قام معه بتعميرها والقيام بشؤونها.

وفي أثناء الثورة السورية عام 1925م، ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه وعلى والده، وعُذّب عذابا شديدا، وقد اتهمتهم السلطة الفرنسية بالمشاركة في الثورة السورية وأكّدت التهمة بمواقف والده السابقة من التجنيد الإجباري في الجزائر ومن عدم تقيده بقرارات الدولة الفرنسية في منعها التعليم في الزوايا، وخروجه من الجزائر خفية مع أهله بدون رخصة ولا جوازات سفر. ثم أُفرج عنهم بعد ذلك إثر توسط بعض الشخصيات المعروفة كان على رأسها المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني.

ولما توفي والده الشيخ محمد سنة 1927م، اتفق علماء الشام وكبار أهل الطريق على تولية ابنه العلامة الورع التقى النقي العابد النّاسك ذي الأخلاق الكاملة الشيخ أحمد بن يلس، فألبسوه برنس والده وبايعوه على اتباع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمداومة على الذكر والمذاكرة، فقام بأمر الزاوية أحسن قيام.

وإلى جانب ذلك فقد قام بتأسيس مدرسة شرعية سمّاها : " مدرسة الإرشاد والتعليم " وبقي فيها حتى وفاته، وساعده في أعماله الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب، وكان قد درس عليهما من قبل.

وفي سنة 1367هـ (1949م) قام بزيارة إلى المغرب ونزل بتلمسان موطن نشأته التي غادرها منذ قرابة الأربعين سنة، وفرح به جميع أهلها وخرجوا لملاقاته، فاجتمع بعلمائها وصلحائها ورجال الطرق كما أنّه اجتمع بأهله وأحابيه ممّن بقي منهم بتلمسان ولم يهاجر إلى الشّام.

ثم قصد بعد ذلك فاس، ونزل عند صديقه الشيخ المحدث عبد الحي الكتاني، كما أنّه قصد زاوية الشيخ الهبري واجتمع بشيخها المربي الكامل صاحب الأحوال الربانية العارف بالله الشيخ سيدي أحمد بن سيدي محمد الهبري المتوفى سنة 1951م⁽⁸⁾ فجّد معه عهد والده وأخذ عنه الإذن في الإرشاد والتعليم. ثم عاد إلى الشّام.

وقد ترك الشيخ أحمد مؤلّفات، طُبِعَ بعضها وهي على شكل كتب مبسّطة منها : "الحدائق الوردية في الدروس التوحيدية"، "المنتخب من كلام العرب" (صدر في أجزاء صغيرة)، "العقد الثمين في سيرة سيد المرسلين" (لتلاميذ المدارس الابتدائية)، و"المجموعة السنّية في أورد السادة الشاذلية الدرقاوية التلمسانية".

وقد كان الشيخ أحمد دائم الصلاة والعبادة، ملازماً لأداء فريضة الحج، حجّ أكثر من عشرين مرّة، وكانت له مجالس ذكر دائمة في الزاوية الصمدية بدمشق يرشد فيها المريدين ويعمل للحاضرين والفقراء بها طعاماً. وبقي على هذه الحال إلى أن توفي رحمه الله في 28 جمادي الأولى سنة 1379هـ (1959م) ودفن في مقبرة الباب الصغير، جانب والده.

ثانياً: ولادته ونشأته

وُلد الشيخ عبد الرحمن في سنة 1351هـ الموافق لأوّل فبراير سنة 1932م بدمشق في حي الدقاقين، قرب الشّاغور.

أخذ العلم في المدرسة التي أسّسها والدّه الشيخ أحمد المسمّاة " مدرسة الإرشاد والتعليم " وكان من أبرز مشايخه بها، إضافة إلى والده، الشيخ هاشم الخطيب والشيخ علي الدقر، اللذين كان لهما مع المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني في سورية، أكبر الفضل في نهضة الإصلاح، التي عُرفت بنهضة المشايخ، وإشعال فتيل الثورة ضدّ الفرنسيين⁽⁹⁾.

ودرس أيضاً اللغة العربية وآدابها على بعض المشايخ منهم الشيخ علي شعيرية والشيخ أنور الحسني اللذان درس عليهما إعراب القرآن الكريم، وكذلك درس على العالم اللغوي الشيخ رفيق السباعي الذي كان من تلاميذ محدّث الشّام الشيخ بدر الدين الحسني.

كما تابع دراسته في المدارس الرّسمية بدمشق ومنها حصل على الشّهادة الثانوية (البكالوريا)، ثم انتسب إلى كلّية الشريعة بالجامعة السورية.

أمّا في مجال التربية والسلوك الصّوفي فقد أخذ الطّريقة الشاذلية عن والده الشيخ أحمد بن يلس، ثم جدّد العهد بعده على شيخ الطّريقة الشاذلية في بلاد الشّام العارف بالله المعمر الشيخ عبد الرحمن الشّاغوري رحمه الله المتوفى سنة 2004م⁽¹⁰⁾، (وقد دخل على يديه الخلوة).

وبعد وفاة والده سنة 1959م قُدّم لإلقاء الدّرس الذي كان يقدّمه والدّه في زاويته " الزاوية الصّمدية"، فواصل الشيخ الدّرس في نفس الكتاب الذي كان يدرّسه والدّه، مبتدئاً في المكان الذي توقّف عنده قبل وفاته، فعند ذلك أجمع أهل الزاوية على تنصيبه شيخاً على الزاوية خليفة لوالده.

ثالثاً: زواجه

لما تولّى مشيخة الزاوية الصّمدية في سنة 1959م، أصرّ كبار أهل الطّريق وأتباع الزاوية على تزويجه، فكان أن تزوّج في سنة 1960م بفتاة من أشرف وأعرق العائلات الشّامية التي اشتهر أفرادها بالعلم والفضل والصّلاح، وهي عائلة الخطيب. فولد لها هو العالم الرّباني الشيخ الصّوفي النّقشبندى الطّريقة، الزاهد الورع محمد سهيل الخطيب الحسني المتوفى سنة 1402هـ (1981م)⁽¹¹⁾ الذي تتلمذ على كبار شيوخ عصره كأمثال المحدث الشيخ بدر الدين الحسني الذي كتب عنه أمالي كثيرة⁽¹²⁾، والشيخ محمد بن جعفر الكتاني والمحدث الشيخ عبد الحي الكتاني، والشيخ هاشم الخطيب والمقرئين الشيخ عبد الرحيم دبس وزيت وابنه الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت، وغيرهم كثير.

وقد كان الشيخ سهيل الخطيب أعجوبة من الأعاجيب في اهتمامه وحرصه على تطبيق السنة النبوية ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما ثبت عنه، كثير الرؤية له صلى الله عليه وسلم في المنام.

أخبرني الشيخ الدكتور عبد العزيز الخطيب أنّ والدّه الشيخ سهيل احتار في الكيفية التي

كان يلفّ بها النبي صلى الله عليه وسلم عمامته وظلّ أياً ما مهتماً لذلك حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فبيّن له الكيفية، فأصبح يلفّ عمامته كما بيّنها له رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن شدّة حرصه على تطبيق كل ما ثبت أنّ النبي صلى الله عليه وسلم فعله – حتى وإن كان من الأمور الجبليّة – أنّه كان مرّة يدرّس طلبته في المسجد، فذكر لهم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حدث له أن مشى حافياً في الطّريق وكان يأمر الصحابة بالتحفي في بعض الأحيان⁽¹³⁾. فعندها طلب من تلامذته الخروج من المسجد والمشي في الشّارع دون نعال حتى يحصل لهم شرف تطبيق هذه السنة. فخرج وخرجوا معه فمشوا حفاة ثم عادوا إلى درسهم في المسجد.

من أجل ذلك فإنّ الشيخ عبد الرحمن بن يلس قد تأثّر بصهره الشيخ سهيل، أيّما تأثّر، فكان يجلّه كثيراً ويرجع إليه في كلّ ما يهمّه من أمور ويستشكّله من عويصات المسائل العلمية ودقائق الأسرار الذوقية.

رابعاً: وظائفه وهجرته إلى الجزائر

في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي توظّف في المجلس النيابي السوري وبقي فيه عشر سنوات تقريباً، كما أنّه كان يقوم بالخطابة يوم الجمعة.

وفي سنة 1967م خلال انعقاد مؤتمر جمّع زعماء الدول العربية، انتقد رؤساء هذه الدول في خطبة جمعة ألقاها من على منبر مسجد يالبعيا بدمشق، فحثّهم على العمل لإعلاء كلمة الله ونصرة شرعه وتوحيد كلمة المسلمين وعدم التفرّق..، فسبّبت له هذه الخطبة مشاكل مع النظام آنذاك، خاصّة أنّه كان موظفاً في المجلس النيابي.

ومما زاد الطّين بلةً والأمور تعقيداً، أنّه أصرّ على الذهاب إلى الحج خلال هذه السنة، حيث كان من عادته رحمه الله منذ بداية الستّينات الذهاب إلى الحج في كل موسم، وذلك على الرغم من عدم حصوله على الموافقة من مسؤوليه.

وفور رجوعه من الحج ضيّق عليه وأنّهم بالتّأمر على النظام وهُدّد بالإعتقال، فاضطرّ إلى مغادرة دمشق، وقام بعض أحبائه بتهريبه عن طريق العاصمة الأردنية عمّان ومنها أخذ الطّائرة في اتجاه باريس، ثم دخل إلى الجزائر.

ولدى تواجده بعمّان عُرض عليه أن يتوظّف بها فاعتذر وقال: إذا كان ولا بدّ من مغادرة الشّام فلن أستقرّ إلّا في بلد أجدادي الأصليّ الجزائري.

وفي الجزائر استوطن مدينة وهران واستقرّ بها وتوظّف كأستاذ بإحدى ثانوياتها (ثانوية ابن باديس) مدرّساً لعلوم اللغة العربية وآدابها، وذلك إلى غاية سنة 1976م. ثم عُيّن أستاذاً بالجامعة في معهد علم النفس حيث أسند إليه تدريس الفلسفة والفكر الديني، واستمرّ على ذلك إلى غاية سنة 1979م حيث أُصيب بمرض اضطرّ بسببه الإنقطاع عن التدريس بالجامعة ونُقل إلى العاصمة الفرنسية باريس للمعالجة فقاموا ببيتْر إحدى رجليه.

وخلال تواجده بفرنسا تعرّف على الدكتورة " إيفا دي فترى " وكانت أستاذة الفلسفة بجامعة السربون ومتخصّصة في دراسة التصوف الإسلامي، أسلمت منذ مدّة وكانت متأثرة بحجّة الإسلام أبي حامد الغزالي⁽¹⁴⁾، فاتّفق معها على تقديم أطروحة علمية عن "تصوف أبي مدين" دفين تلمسان الذي كان الشّيخ متأثراً به جدّاً. كما تعرّف على المستشرق جاك بارك، رئيس قسم الفلسفة آنذاك الذي شجّعه على عمله، ولكن الأجل حال دون إتمام العمل.⁽¹⁵⁾

خامساً: اشتغاله بالدعوة إلى الله وإرشاد الناس

وبالموازاة مع عمله التدريسي في الثانوية ثم في الجامعة، فإنه كان للشيخ، ومنذ أن حلّ مدينة وهران واستقرّ بها، نشاط دعوي وإرشادي وتعليمي يقوم به في الزاوية العلوية وفي مختلف الأماكن التي يتاح له فيها ذلك، فاستفاد من دروسه وتوجيهاته ومواعظه العديد من أبناء مدينة وهران وخاصة الذين كانوا يترددون على الزاوية العلوية، أو على بيته الذي كان مفتوحاً لطلبة العلم والزائرين والذاكرين طيلة أيام الأسبوع.

والجدير بالذكر أن الفترة التي قدّم فيها الشيخ إلى الجزائر، وهي فترة الستينات بعد الإستقلال، شهدت غزوف بعض طبقات المجتمع وخاصة النخب المثقفة منه، عن تعاليم الدين والإنسلاخ من أحكامه، والتأثر بالثقافات الوافدة من الغرب، وظهور الكثير من الأفكار الإلحادية نتيجة بروز بعض التيارات اليسارية والشيوعية، فبات ذلك يهدّد فكر الشباب وعقيدتهم وأخلاقهم.

فكان الشيخ رحمه الله يبذل قصارى جهده للدفاع عن تعاليم الدين، عقيدة وشريعة، بأسلوب منطقي وعلمي مدجج بالأدلة والبراهين العقلية الدالة على مصداقيته، لإقناع هؤلاء الشاردين عن الجادة.

وقد اهتم على يديه كثير من هؤلاء الشاردين وعادوا إلى حمى الدين ورحابه. وقد ذكر لي ابنه المسمّى "نور محمد" حفظه الله، أنه التقى مرّة بامرأة، فلمّا علمت أنّه ابن الشيخ عبد الرحمن بن يّس، قالت له: إنّ والدك رحمه الله هو الذي كان السّبب في انقاضي من الإلحاد...

- أهم ما كان يدعو إليه ويركّز عليه خلال دروسه:

لقد أكرمني الله خلال مرحلة الشباب، في الفترة الممتدة ما بين سنة 1980م إلى وفاة الشيخ سنة 1983م، بملازمة دروسه التي كان يلقيها في الزاوية العلوية وفي بيته. وكان من أهم ما استفدته منه خلال هذه الدروس ورأيتّه يركّز عليه، وبقي منذ ذلك العهد، وإلى غاية كتابة هذه السطور في ترجمته، عالقا بذهني وراسخا في مذكرتي، ما يلي:

1- دعوته إلى الإهتمام بالعلم:

كان رحمه الله من خلال معابنته عن قرب لأحوال بعض المنتسبين إلى الطرق الصوفية، يلاحظ أنّ الكثير منهم لم يكن له كبير اهتمام بطلب العلم الشرعي، فكان يحاول تصحيح هذا الوضع ويدعو إلى ضرورة الإهتمام بالعلم أولاً. لأنّ الله تعالى لا يُعبد إلاّ بالعلم، فهو القائل :

[فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك] (سورة محمد: 19)، فبدأ الله بالعلم أولاً ثم بالإستغفار ثانياً.

وكان يقول بأنّه لن تكون للتصوف نهضة إلاّ بالتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، والتأسي به لا يكون إلاّ بالعلم بسيرته، بأحاديثه، بالقرآن الذي أنزل عليه، وشعاره صلى الله عليه وسلم "ربّ زدني علماً".

وكان يرى أنّ من أهم الأسباب التي أدّت إلى عدم الإقبال على التصوف - في أيّامه- هو إهمال بعض الدعاة إليه للجانب العلمي، ولا يمكن الإقبال على التصوف إلا إذا كان دعائه قدوة في السلوك: أي التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أجل ذلك كان للشيخ اهتمام بعقد الحلق العلمية وقراءة الكتب فيها، فكانت له حلقة في قراءة صحيح الإمام البخاري وحلقة في قراءة كتاب في التفسير.

2- تأكيدُه على ضرورة الإلتزام بظاهر الشرع وآدابه:

كان رحمه الله من خلال دروسه يُحاول إبطال بعض ما كان سائداً من أفكار وسلوكات باطلة ألصقت بالتصوف ظلماً وزوراً، والتصوف منها بريء.

فمن ذلك ما كان سائداً عند بعض المنتسبين، من عدم الإلتزام ببعض أحكام وآداب الشرع الظاهرة، والتهاون في تطبيقها، معتقدين أنّ الإعتناء بالقلب وتزكية النفس بالأوراد والأذكار كافٍ لأن يرقى المرید إلى مرضاة الله.

فكان رحمه الله يؤكد على ضرورة الإلتزام بأحكام الشريعة وآدابها، وأنّ السالك إلى الله لن يصل إليه إلا إذا أصلح الظاهر والباطن معاً، وكان يكرّر ما كان يقوله علماء التصوف قديماً بأنّ الإستقامة هي عين الكرامة. وكثيراً ما كان يستشهد أثناء دروسه بهذه القصة الواردة عن أبي يزيد البسطامي (188-261هـ)⁽¹⁶⁾ الذي قصد زيارة بعض من وُصف بالولاية فلما وافى مسجده قعد ينتظر خروجه، فخرج الرّجل وتنخّم في المسجد فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه. وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يكون أميناً على أسرار الحق التي وهبها لأوليائه؟⁽¹⁷⁾

3- دعوته إلى الإهتمام بالتصوف الأخلاقي دون التصوف الفلسفي:

من المعروف عند الباحثين في التراث الصوّفي أنّ التصوف له اتجاّهان بارزان عُرف بهما خلال تاريخه، هما التّصوّف الأخلاقي ويُطلق عليه أيضاً التصوف السني، والتّصوّف الفلسفي.⁽¹⁸⁾

أمّا الإتجاه الأوّل فهو الذي كان سائداً في القرون الأولى وهو التصوف القائم على عقيدة أهل السنة والجماعة، وعلى الزهد والتّقشف وتربية النفس وإصلاحها، ويعتبر الإمام الغزالي أكبر مدافع في الإسلام عن هذا اللون من التصوف، وهو اللون الذي نصره، من قبل الغزالي، أمثال أبو القاسم القشيري صاحب الرّسالة المشهورة في التصوف، وأبو طيب المكي صاحب قوت القلوب، والهروي وغيرهم..

أمّا التصوف الفلسفي فهو التصوف الذي يعتمد أصحابه إلى مزج أدواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية، مستخدمين في التعبير عنه مصطلحات فلسفية استمدوه من مصادر متعددة. وقد ظهر هذا اللون من التصوف

بوضوح منذ القرنين السادس والسابع الهجريين، وممن مثل هذا الإتجاه الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ عبد الكريم الجيلي والسهروردي المقتول وغيرهم.

ولخطورة الخوض في التصوف الفلسفي، خاصة لمن لا يعلم مصطلحات أهله، ولكونه يعبر عن أذواق ومواجيد أصحابه نتيجة المجاهدات والرياضات والذكر مع الفكر. مما يجعل من لم يذوق ما ذاقوه، يفهم كلامهم على غير مرادهم، وقد يفهمه بفهم يتعارض مع العقيدة، فإن الشيخ عبد الرحمن بن يّس كان ينبّه دائما المريدين على الإهتمام بالتصوف الأخلاقي الذي ينتفعون به في تهذيب نفوسهم وأخلاقهم، وعدم اللّجوء إلى قراءة كتب أصحاب التصوف الفلسفي لعدم الأمن من العواقب.

وأذكر مرّة أنّ أحدا زاره في بيته وسأله عن مسألة قرأها في كتاب الفتوحات المكيّة للشيخ محيي الدين بن عربي لم يفهم معناها. فقال له الشيخ مستنكرا: أوتقرأ كتاب الفتوحات؟ ثم قال للسائل: أمّا أنا فلا أفهم ما في الفتوحات، وقد اشتريت الكتاب ووضعت في مكتبي متبرّكا به ولا أقرأ فيه.

والذي أعتقده، أنّ الشيخ - وهو الراسخ القدم في التصوف - كان يفهم ما في الفتوحات، ولكن ذكر ذلك زجرا لذلك السائل المتطاول، وتنبيهها لغيره ممن كان حاضرا. حتى يهتم الإنسان بإصلاح نفسه وتهذيبها، فإذا فتح الله عليه بالأسرار فهم كلام القوم.

سادسا: مميزات شخصيته وأخلاقه

كان الشيخ رحمه الله كامل الأخلاق حسن السلوك، ولا يمكن تعداد كلّ ما اتّصف به من أخلاق في هذه الصفحات المختصرة، ولذلك فسأقتصر على ذكر أهم ما ميّزه من خلال ما عرفتّه عنه.

1- صدعه بالحق وعدم خشيته إلا من الله:

كان رحمه الله في دروسه ومواقفه يقول دائما كلمة الحق مدافعا عن الإسلام وأهله وتعاليمه ولا يخشى في الله لومة لائم، وإن كان ذلك يسبّب له الكثير من المتاعب، وقدوته في ذلك هو الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلّم. فقد كان رحمه الله يبلغ رسالة الله ولا يخشى أحدا، كما قال الله جلا وعلا: [الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله] (سورة الأحزاب: 39)، وهذه الصفة لا تتأتّى إلا لمن غرف من مناهل أهل الصدق والإخلاص فأصبح بكليته لله سبحانه، فهو يخشاه ولا يخشى غيره.

وإن صدعه بالحق هو الذي سبّب له - كما ذكرنا سابقا - الخروج الإضطرابي من بلاد الشام، وهي البلد التي ولد فيها ونشأ وتعلّم بها، ودُفن والدّه وجدّه فيها.

كما أنّه تعرّض للمضايقة والمساءلة من قبل المسؤولين الجزائريين بسبب انتقاده للتوجّهات اليسارية والإشتراكية التي كانت سائدة لدى الحكام في السبعينيات من القرن الماضي.

2- إخاؤه ومحبّته:

إنَّ من أعلى ما تجسّد في الشيخ عبد الرحمن خلق الإخاء والمحبة، فهو صافي المودة، ثرّ العطاء حيثما توجه نشر من عبير روحه الحبّ، فلا يكاد يجتمع مع أخ حتى يشعل في قلبه نور الإخاء في الله حارًا متوقّدًا منيرا لأنّه هو كذلك، فتراه يغرف منه الصغير ويرتشف منه الكبير، وهو بطبيعته شفاف النّفس حسّاس الوجدان مع تأمل عميق، وفراصة صادقة، وفطرة صافية، وقدرة كبيرة على أن يحيط الكبار والصّغار بعطفه، وأن يتجاوز عن الأخطاء، ويغض الطرف عن الزلّات، ممّا جعل الكثيرين من الشّباب يتعلّقون به بمجرد أن يعرفوه، لأنّهم كانوا يجدون عنده حبّا بلا مصلحة، وأبوة بلا مطالب شخصية، وأخوة تتقارب في أجوائها فوارق السنّ والقدر بسبب من تواضع لا يعرف إلّا حدود الشّريعة.

وخلال تتلمذي عليه أثناء مرحلة الشّباب، كنّ أكثر من التردّد على بيته بصحبة بعض طلبة العلم، فكان يفرح بقدمونا ويستقبلنا بحفاوة وبشاشة، ويبالغ في إكرامنا والتودّد إلينا ومباسطتنا، فكنا نتعلّم منه العلم ومعه الأخلاق والأدب وحسن المعاشرة.

3- صبره على المحن والشّدائد:

شاءت حكمة الله أن تكون هذه الدّنيا هي دار محن وابتلاء، وكما قال ابن عطاء الله السّكندري في حكمه: "لا تستغرب وقوع الأقدار ما دمت في هذه الدّار فإنّها لم تُبرز إلّا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها". والشيخ عبد الرحمن بن يّلس رحمه الله عاش حياة مليئة بالمحن والمصائب، مثله في ذلك كمثّل من سبقه من علماء هذه الأمّة وصالحيتها، وقدوتهم في ذلك أيضا سيّد هذه الأمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: "أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل"⁽¹⁹⁾. فالمحن والمصائب هي سنّة الله في عباده ليميز الخبيث من الطّيب والصادق من الكاذب، ولو ترك النّاس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط، لاستوى الصّادق والكاذب. وصدق الله القائل في محكم كتابه: [ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين] (سورة العنكبوت: 1-3)، والقائل: [أم حسبكم أن تدخلوا الجنّة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصّابرين] (سورة آل عمران: 142).

عاش الشيخ عبد الرحمن هذه الحياة وأصيب فيها بأنواع وألوان من المحن والابتلاءات، فذاق محنة التغرّب عن الأوطان، وابتلى بمختلف الأوجاع والأسقام، وكان أشدّها وطأة عليه، المرض الذي أفقده إحدى رجليه، كما أنّه تجرّع مرارة الفاقة والإحتياج في بعض الفترات.

ومع ذلك فإنّه كان يقابل ذلك كلّ بصبر جميل وصدر رحب، لا يشتكي ولا يتضجّر – رغم مرضه الثقيل –، بل تمتلئ نفسه بالأمل والتوكّل على الله في كل أحواله محتسبا ما أصابه الله سبحانه.

ومن الأمور التي كانت تؤثر عليه ويتألم منها كثيرا، وكان يعتبرها من أشدّ أنواع الإبتلاءات، بعدّه عن أحبّابه وإخوانه الصّالحين الذاكرين لله سبحانه، الذين كانت تجمعهم بهم مجالس الذكر والمذاكرة والإجتماع على طاعة الله، أولئك الذين كثيرا ما كان يستشهد في وصفهم بما قاله سيدي أبو مدين الغوث:

ما لذة العيش إلّا صحبة الفقراء هم السّلاطين والسّادات والأمراء⁽²⁰⁾

ولذلك فإنه لما كان بفرنسا وبقي فيها مدة من الزمن للعلاج، تأثر لبُعدة عن هؤلاء الإخوان، وأهمه الأمر حتى خشي أن يكون ذلك عبارة عن عقوبة عُوقب بها بسبب ذنب اقترفه وهو لا يشعر، لقول الله جلّ وعلا: [وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير] (سورة الشورى: 30). وقد كتب لابنته الكبرى من فرنسا رسالة يبيّن لها فيها ما كان يعانيه من غربة في وسط أناس لا يعرفون الله ولا ذكره، مبدّيا لها خشيته من أن يكون ما يعانيه هو عقوبة من جنس العقوبة التي أراد سليمان عليه السلام أن يُسلّطها على الهدهد حينما غادر مقرّه دون استئذانه، حينما قال: [ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأُعذّبَنه عذابا شديدا أو لا أذبحَنه أو لياتينني بسلطان مبين] (سورة النمل: 20-21)، حيث ذكر المفسّرون أن من جملة العقوبات التي أراد سليمان تسليطها على الهدهد هو حبسه مع غير جنسه من الطيور، وكما قال بعضهم: "أضيق السجون معاشرة الأضداد" (21).

ولما عاد الشيخ إلى بيته ووطنه والتقى بأحبابه وإخوانه، غمره الفرح والبهجة والسرور، ولا زلت أذكر، لما ألقى أول درس في الزاوية بعد رجوعه من فرنسا، أن أول كلام قاله مخاطبا به الحضور، هذه الأبيات من قصيدة لسيد أبي مدين:

تضيق بنا الدنيا إذا غبتمو عنا وتزهق بالأشواق أرواحنا ممّا
بُعادكم موتٌ وفُربكمو حيا وإن غبتمو عنا ولو نفّساً ممّا
نموت إذا غبتم ونحيا بفُربكم وإن جاءنا عنكم بشير اللّقا عشنا (22)

4- كرمه:

من الخصال التي تميّز بها الشيخ، شدّة الكرم، فقد كان رحمه الله كريما سخيا يبذل عطاء من لا يخشى الفقر، فقد كان بيته مفتوحا للزائرين طيلة أيام الأسبوع، ولا يخرج الواحد منهم إلّا إذا تناول شيئا من الطعام والشراب، وكان كثيرا ما يردّد هذه العبارة المأثورة عن أهل التصوف، يربّي ويُنَبّه بها الحاضرين: "من أقبح كل قبيح صوفي شحيح".

كما أنّه كان يتكرّم على أحبابه بما يأتيه من الهدايا، وقد أخبرني غير واحد ممّن كانت له صلة بالشيخ، أنّه أعطاه مالا كثيرا عندما أهدى له أحد الزائرين الأغنياء بعض المال.

وأخبرني أخ في الله ممّن صحب الشيخ ولازمه، أنّ في مرّة كان ولد الشيخ الأصغر (واسمه اللّيث ولم يكن يتجاوز سنّه آنذاك ستّ سنوات) يقوم بحركات الصلّاة وهو يلعب، فلمّا سجد التفت إلى والده قائلا: بابا هل تريد أن أطلب من الله أن يبعث لك شيئا؟ فقال الشيخ يمازح ولده: أطلب منه أن يبعث لنا مبلغ كذا .. (وحدّد الشيخ مبلغا ماليا معيّنا). ثم لم تمرّ سوى لحظات حتى طرق الباب زائر يطلب ملاقة الشيخ، وبعد انتهاء الزيارة أهدى له مبلغا ماليا وانصرف، فلمّا عدّ الشيخ المبلغ، وجده نفس ما ذكره لولده دون زيادة ولا نقصان. فقال عندها ممازحا: يا ليتنا طلبنا أكثر من أجل أن ننتفع وننفع به أكثر...

سابعا: وفاته

كان من عادة الشيخ أن يزور دمشق في كل سنة، وينزل في دار صهره والد زوجته الشيخ سهيل الخطيب، وفي إحدى هذه الزيارات في سنة 1983م، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه يثني عليه، ويقول له: " أنت منا " .

وحدثتني زوجة الشيخ عبد الرحمن، بنت الشيخ سهيل حفظها الله، أنهم عندما كانوا في الجزائر العاصمة قبل سفرهم إلى الشام، في بيت بعض أحبائهم، وكانت معهم والدتها، كان الشيخ ممتدًا على فراش يستمع إلى زوجه تتلو عليه القرآن، فسمعتة فجأة يقول وهو في حال بين اليقظة والمنام : وعليكم السلام ورحمة الله. ثم التفت إلى والدة زوجته وقال: لقد رأيتُ الآن الشيخ سهيل وقال لي لقد كنسنا (هيئنا وأصلحنا) لك الطريق، ففضل.. فظنوا أنه هيا له الطريق للذهاب إلى الشام، ولكن في الحقيقة إنما كان الطريق يُهيأ له للذهاب إلى الشيخ سهيل والإلتحاق به في عالم البرزخ.

ولما كان في دمشق، وقبل يومين عن موعد سفره للعودة إلى الجزائر، صعد مع أحد أحبائه إلى جبل قاسيون المطل على دمشق، فقال له وهو ينظر إلى هذا البلد الحبيب إلى قلبه: قل آمين. فقال صديقُه: آمين. فقال الشيخ: أسأل الله أن يجعل وفاتي في الشام وأدفن على قبر جدِّي بجوار سيدنا بلال.

وقد كانت هذه هي أمانة الشيخ رحمه الله دائما، وقد استجاب الله لهذه الأمانة، حيث وقبل موعد السفر والرجوع إلى الجزائر بيوم، وذلك يوم الإثنين 11 شعبان من سنة 1403هـ الموافق لـ 23 ماي 1983م، اشتدَّ المرض على الشيخ، وذكر لزوجته أنه رأى في هذا اليوم الشيخ سهيل وهو يطوف معه بالكعبة. ثم قبل العصر، وهو يعاني من شدة الألم، طلب منهم قراءة شيء من القرآن الكريم كسورة يس وأواخر سورة البقرة، ثم توضأ بمساعدة زوجه وأخيها صهره الشيخ عبد العزيز الخطيب وجَهَّز نفسه لأداء صلاة العصر، ومع بدء الأذان وعند قول المؤذن " أشهد أن محمدا رسول الله"، نطق بالشهادتين وفاضت روحه إلى بارئها.

فشيعت جنازته ودُفن بمقبرة الباب الصغير كما كان يتمنى، في قبر جدّه على مقربة من قبر سيدنا بلال رضي الله عنه.

فرحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جنانه، وجزاه الله عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الهوامش

- (1) يُراجع في ترجمته ما كتبه نجله الحاج مصطفى بن يّلس في تقديمه لديوان والده، وكتاب "السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية" للحاج مصطفى العشعاشي ص 37-47، وتاريخ الجزائر الثقافي للدكتور أبو القاسم سعد الله 527/5 دار الغرب الإسلامي بيروت ط 1 سنة 1998، ومعجم أعلام الجزائر لعادل نويهض ص 356 مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت ط 3 سنة 1403 هـ - 1983 م.
- (2) تراجع ترجمته في السلسلة الذهبية ص 18
- (3) تُراجع ترجمته في المرجع السابق ص 95
- (4) المرجع السابق ص 15
- (5) يُراجع حول موقف علماء الجزائر من التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي والهجرات الجماعية إلى بلاد الشام: الحركة الوطنية الجزائرية للدكتور أبو القاسم سعد الله 129/2، الشركة الوطنية الجزائرية ط 3 سنة 1983، وتاريخ الجزائر الثقافي 505/5، والجزائر والأصالة الثورية لصالح خرفي ص 151.
- (6) تُراجع ترجمته في كتاب "حقائق عن التصوف" لتلميذه الشيخ عبد القادر عيسى ص 499 دار العرفان، حلب ط 12 سنة 1421 هـ - 2001 م. والسلسلة الذهبية 2001 م.
- (7) يُنظر في ترجمته: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري لمحمد الحافظ ونزار أباطة 718/2، ط 1 دار الفكر دمشق 1406 هـ، السلسلة الذهبية في التعريف برجال الطريقة الدرقاوية ص 68.
- (8) له ترجمة في السلسلة الذهبية ص 50.
- (9) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي ص 387، دار المنارة جده ط 8، 1411 هـ - 1990 م، ذكريات علي الطنطاوي 219/1، دار المنارة جده ط 3، 1422 هـ - 2001 م.
- (10) له ديوان مطبوع بعنوان " الحقائق الندية في النسمات الروحية "، وقد ترجم لحياته في مقدمة هذا الديوان أحد خلفائه، شيخنا العلامة محمد بن ابراهيم اليعقوبي الحسني، تحت عنوان " قبسات من حياة الشيخ". يُراجع الديوان ص 5، دار الفجر دمشق ط 2، سنة 1998.
- (11) له ترجمة في: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري 981/2، وإتمام الأعلام للمؤلفين د. نزار أباطة ومحمد رياض المالح، ص 367، دار صادر بيروت ط 2، 1424 هـ - 2003 م.
- (12) هي الآن قيد التحقيق على يد أحد أقرباء الشيخ سهيل الخطيب، وهو الدكتور عجاج الخطيب المتخصص في علوم الحديث، صاحب التأليف الكثيرة التي أشهرها كتابه الهام " السنة قبل التدوين".
- (13) "عن عبد الله بن بُريدة، أنّ رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رحل إلى فضالة بن عُبيد وهو بمصر، فقَدِم عليه، فقال: أما أني لم آتِكَ زائراً، ولكني سمعتُ أنا وأنت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم رجوتُ أن يكون عندك منه علم، قال: ما هو؟ قال: كذا وكذا، قال: فمالي أراك شَعِثاً

وأنت أمير الأرض؟ قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهانا عن كثير الأَرْفَه. قال: لا أرى عليك حذاء؟ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نَحْتَفِيَ أحياناً".
أخرجه أبو داود في أول كتاب الترجل برقم 4157، وأحمد في المسند 22/6.
قال الشيخ محمد عوامة محقق سنن أبي داود: "الأرفه" هو كثرة التدهن، وقيل: الترجل كل يوم" (سنن أبي داود 444/4، دار القبله جدّة، ط 1، 1419هـ-1998م).

(14) كُتِبَ عنها مقال في مجلّة "سيدتي" العدد 109، السنة الثالثة 17 نيسان 1983م.

(15) يُراجع: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري 986/2

(16) من كبار الصوفية العارفين الزّهاد، من أقواله: "إذا نظرتُم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتّى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتّى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الشريعة". تُراجع ترجمته في: الرسالة القشيرية ص 13، طبعة دار الكتاب العربي بيروت، بدون تاريخ. وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي 143/2، دار الكتب العلمية ط 1، 1399هـ-1979م. والأعلام للزركلي 235/3، دار العلم للملايين ط 5، 1980م.

(17) الرسالة القشيرية في التصوف، ص 14.

(18) للتوسع في هذه المسألة يُمكن الرجوع إلى ما كتبه ابن خلدون تحت عنوان: "الكلام فيما نقل المتأخرون اسم التصوف إليه والردّ عليهم في ذلك" في كتابه "شفاء السائل وتهذيب المسائل" ص 100، بتحقيق د. محمد مطيع الحافظ، دار الفكر دمشق ط 1، 1417هـ-1996م. وما كتبه أيضاً في المقدّمة ابتداء من ص 520، دار الجيل بيروت بدون تاريخ. وكتاب "مدخل إلى التصوف الإسلامي" د. أبو الوفا التفتازاني ص 116، 173، و225، دار الثقافة القاهرة، ط 2 سنة 1976م.

(19) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء (فتح الباري 91/10)، والترمذي في كتاب الزهد، باب في الصبر على البلاء، رقم 2509 (تحفة الأحوذى 78/7)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم 4023 (السنن 1334/2)، والدارمي في كتاب الرّقائق، باب في أشد الناس بلاء (السنن 320/2)، وأحمد في مسنده (174/1، 173).

(20) ديوان العارف بالله شعيب أبي مدين، جمع وترتيب الشيخ العربي الشوار التلمساني، ص 58، مطبعة الترقى دمشق، 1357هـ-1938م.

(21) يُنظر تفسير لطائف الإشارات للقشيري 37/5 بتحقيق سعيد قطيفة، المكتبة التوفيقية القاهرة، بدون تاريخ. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 180/13 دار إحياء التراث العربي-بيروت، بدون تاريخ.

(22) ديوان أبي مدين، ص 59.